الأزهر

العقيدة الدينية

وأهميتها في حياة الإنسان

للأستاذ الدكتور
محمود حمدي زقزوق
عضو مجمع البحوث الإسلامية
وعميد كلية أصول الدين

رئيس التحرير
د/ علي أحمد الخطيب

هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر رجب ١٤١٥هـ

١ ـ الطبيعة الإنسانية والنزعة الدينية :

تشتمل الطبيعة الإنسانية على عنصرين أساسيين : عنصر مادى وعنصر روحى ، فقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله خلق الإنسان من طين ، وأنه عندما اكتملت تسويته وتم صنعه من هذه المادة الطينية التى تشتمل على كل العناصر الأساسية للمادة أضاف الحق ـ تبارك وتعالى ـ إلى ذلك عنصراً آخر جوهرياً . وقد تمثل ذلك فى العنصر الروحى الذى به اكتمل خلق الإنسان ، والذى به صار الإنسان إنساناً ، وأصبح جديراً بأن يطلب الله من الملائكة أن يسجدوا له تمجيداً لصنع الله وتكريماً للإنسان . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (١).

ونلاحظ فى هذه الآية حقيقة هامة لا يجوز أن تغيب عن الأذهان وهى: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أضاف هذا العنصر الروحى إلى ذاته، فقد نفخ الله فى الإنسان من روحه هو ـ سبحانه ـ . وهذا تكريم ما بعده تكريم وخصوصية للإنسان لم ينلها أحد غيره من الخلق . فبقية المخلوقات تشترك مع الإنسان فى العنصر المادى ، ولا يمتاز الإنسان عنها فيه شيئاً أكثر من جمال الصورة وكمال الصنعة . ولكن الامتياز الوحيد الأهم من ذلك كله ؛ هو فى هذا الجانب الروحى الربانى الذى به أصبح الإنسان خليفة الله فى أرضه .

---

(١) سورة الحجر ٢٩ ، وسورة ص ٣٨ ، انظر أيضاً : سورة السجدة ٩ .

وقد أساء إبليس فهم طبيعة الإنسان ونظر فقط إلى الجانب المادى فيه واستكبر أن يسجد لآدم قائلا : ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (٢) ، وغفل عن أن الله قد نفخ فيه من روحه سبحانه . فالأمر إذن لم يكن – كما فعل إبليس – أمر مقارنة بين الطين الذى خلق منه الإنسان ، والنار التى خلق منها إبليس ، وأفضلية النار على الطين ، وإنما الأمر يتعلق بالدرجة الأولى بهذا الجانب الروحى السامى المتصل مباشرة بالله ، لأنه روح من روح الله سبحانه .

ويشمل هذا الجانب الروحى : كل القوى المعنوية فى الإنسان من عقل وروح ، وقلب . ويعبر حجة الإسلام «الغزالى» عن هذا الجانب الروحى بقوله : إنه ذلك « الحس السادس الذى يعبر عنه بالعقل ، أو بالنور أو بالقلب أو ماشئت من العبارات »(٣). ويمكن تقسيم هذا الجانب الروحى إلى قسمين : أحدهما يتصل بالعقل ومجاله ، وثانيهما يتصل بعالم الروح والوجدان .

ومن ذلك يتضح أن هناك جوانب أساسية فى طبيعة الإنسان لا يجوز إغفالها أو تجاهلها أو تغليب بعضها على بعض بطريقة تخل بالتوازن بينها . وبناء على ذلك يمكن تلخيص هذه الجوانب الأساسية فى ثلاثة

---

(٢) سورة الإسراء ٦١ . وفى سورة الحجر أيضا (٣٣) : ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .

(٣) إحياء علوم الدين للغزالى جـ ٤ ص ٢٨٩ . طبع مصطفى البابى الحلبى – ١٩٣٩ .

أمور هى : الجسم ، والعقل ، والروح . وتلك جوانب جوهرية لابد من مراعاتها جميعاً إذا أريد فهم الإنسان فهماً سليماً وإذا أريد تربيته وتقويمه حتى يصير صاحب شخصية سوية متوازنة ، وهذا التوازن من شأنه أن يؤدى إلى إقامة مصالح الدين والدنيا معاً . ومن هنا كان اهتمام الشريعة الإسلامية بالتأكيد على المقاصد الضرورية التى قصدت إليها وهى : حفظ «الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال»، وهى كلها أمور تتعلق بتلك الجوانب الأساسية فى الطبيعة الإنسانية .

فالجسم الذى يمثل الجانب المادى فى الإنسان ـ له حاجاته التى ينبغى تلبيتها من مأكل ومشرب وملبس ومأوى وغير ذلك مما يشبع هذا الجانب المادى فى حدود متطلبات هذا الجسم ، وفى إطار ما رسمه الشرع . والحيوان ـ الذى يشترك مع الإنسان فى هذا الجانب المادى ـ يتطلع أيضاً إلى إشباع هذا الجانب . وذلك حق مشروع للإنسان والحيوان على حد سواء .

وإذا كان هذا هو الشأن فى أمر الجانب المادى فإن الجانب الروحى فى الإنسان له أيضا متطلباته وله حاجاته التى لابد من إشباعها ، والعمل على تلبيتها . فالعقل يتطلع إلى العلم والمعرفة والفهم والإدراك ، وهذا حقه ، وتلك وظيفته التى خلق من أجلها . ومن هنا فإن أى محاولة لتعطيل العقل عن أداء وظيفته تعد نكسة فى فطرة الإنسان ترده إلى مستوى الحيوان الأعجم ، وتعد تعطيلًا لحكمة الله ـ سبحانه ـ من خلق العقل ، تماماً مثلما يعطل الإنسان حاسة من الحواس عن أداء وظيفتها التى خلقت من أجلها .

ومن هنا وصف الحق ـ تبارك وتعالى ـ هؤلاء الذين يفعلون ذلك بأنهم غير جديرين باستحقاق وصف الإنسان ، فهم لا يزيدون عن الحيوان الأعجم بل هم أحط منه درجة وأدنى منزلة ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (٤).

ومن هذا المنطلق يعتبر الإسلام عدم استخدام العقل خطيئة من الخطايا وذنباً من الذنوب . يقول الله ـ تعالى ـ حكاية عن الكفار يوم القيامة :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ ﴾ (٥).

ولهذا كانت دعوة القرآن الكريم للإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية دعوة صريحة لا تقبل التأويل . وهكذا يجعل الإسلام التفكير ـ الذى هو وظيفة العقل ـ واجباً مقرراً وفريضة دينية . يقول الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٦).

---

(٤) سورة الأعراف ١٧٩ .

(٥) سورة الملك ١٠ ، ١١ .

(٦) سورة الجاثية ١٣ .

وإذا كانت ممارسة الوظائف العقلية تعد واجباً دينيا فإنها من ناحية أخرى مسئولية حتمية لا يستطيع الإنسان الفكاك منها ، وسيحاسب على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها مثلما يسأل عن استخدامه لباقى وسائل الإدراك الحسية. وفى ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (٧).

والعقل – كما يقول أبو حامد الغزالى – « أنموذج من نور الله » وقبس من نور الحق سبحانه ، أو كما يقول الجاحظ هو : وكيل الله عند الإنسان(٨). ومن هنا كانت أول كلمة من الوحى الإلهى على محمد صلى الله عليه وسلم وهى (إقرأ) تتجه إلى مخاطبة هذا العقل . وقد تكررت مرتين فى الآيات الخمس الأولى من الوحى ، كما وردت فى هذه الآيات أيضاً : كلمة القلم وكلمة العلم. وهذا تأكيد على أهمية القراءة والتدوين بالقلم فى سبيل الوصول إلى العلم وحفظه من الضياع . وذلك من المهام الأساسية للعقل الإنسانى .

وبجانب هذين العنصرين الهامين فى الإنسان : الجسم والعقل ، يوجد هناك عنصر ثالث لا يقل أهمية عنهما ولا يكتمل البناء الإنسانى السليم إلا به وهو : الروح ، وما تتطلع إليه من الارتقاء فى مدارج السمو الروحى الذى يعلو على ماديات الحياة ومتعها الزائلة .

---

(٧) سورة الإسراء ٣٦ .

(٨) راجع بحثنا حول « دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى » ص ٧ – مكتبة وهبة بالقاهرة .

فإذا كان العقل يفهم ويدرك ويتدبر ويميز بين الأمور ، ويوازن بين الأضداد ، ويتأمل فيما يدركه ويقلبه على جميع وجوهه ، ويحكم عليه فإنه لا يجوز أن يقتصر مجال عمله على فهم وإدراك ما يتعلق بماديات الحياة وما يتصل بها من علوم وفنون ، لأنه لو فعل ذلك ، ولم يرد أن يرتقى بالإنسان إلى ما يسمو على ماديات الحياة ، فإن هذا يعنى أنه قد وقف بالإنسان فى منتصف الطريق .

فعالم الماديات ـ رغم أهميته ـ ليس هو كل شىء ، فهناك فوق ذلك عالم الروح المتصل بالله الذى نفخ فى الإنسان من روحه . والعقل فى تأملاته وعلومه وفنونه وسائر أعماله مدفوع بفطرته إلى التطلع إلى ما فوق عالم المادة . ومن هنا فإن الوقوف بالإنسان عند عالم المادة يعد قصوراً فى فهم طبيعة الإنسان وتكوينه . وهذا الفهم القاصر والخاطىء قد يؤدى بالإنسان إلى إنكار عالم الروح كلية، أو على الأقل إهماله وعدم الاكتراث به . وهنا يظهر الإلحاد فى شتى صوره وأشكاله .

إن العلم الإنسانى مهما بلغت منجزاته المادية ، ومهما اتسعت رقعة المعارف التى يضيفها إلى حصيلة البشرية من العلوم فإنه من ناحية أخرى يبين للإنسان قصور طاقاته . فكلما اتسعت دائرة الاكتشافات العلمية؛ كلما اتسعت دائرة المجهولات أمام الإنسان. وصدق الله العظيم القائل :

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٩).

---

(٩) سورة الإسراء ٨٥ .

وهذا من شأنه أن يحد من غروره ويخفف من غلوائه وإعجابه بنفسه ويجعله يلتفت إلى ما وراء هذا الكون المادى : إلى خالق الكون ـ سبحانه ـ وقد بينت لنا آية كريمة ذلك فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (١٠)

وقد أدرك المفكرون الكبار على مدى التاريخ هذا الجانب الهام وانتهى بهم الأمر إلى إدراك أن الله هو الحق . فتاريخ الفلسفة مثلًا يبين لنا أن الفلاسفة الأوائل قد بدأوا تأملاتهم بالسؤال عن أصل هذا الكون المادى ومم يتكون ، وقد أسلمهم ذلك إلى البحث فى طبيعة النفس الإنسانية وعما إذا كانت تختلف فى طبيعتها عن الكون المادى ، وانتهى بهم التأمل إلى إدراك مبدأ الألوهية .

وهذا هو نفس الترتيب الذى ورد فى الآية الكريمة . فالإنسان عندما يفتح عينيه يرى أمامه هذا الكون الكبير وما يشتمل عليه من أرض وسماء وبحار وأنهار وبشر وحيوان ونبات إلخ ، ثم يرجع بعد ذلك إلى نفسه ـ التى تمثل الكون الصغير ـ يتأمل فيها وفى طاقاتها وقدراتها ، ويخرج من هذا التأمل بنتيجة تبين له مدى محدودية قدراته كإنسان ، وهذه النتيجة بدورها تؤدى به فى النهاية إلى إدراك الذات المطلقة التى تمنح الإنسان تلك القدرات والمواهب ، أى تصل به إلى الإيمان .

---

(١٠) سورة فصلت ٥٣ .

وهكذا نجد أن العقل الواعى الفاهم المدرك لا يقف عند الأسباب الثانوية المبعثرة التى تصادفه فى الطبيعة ، بل يتابع السير إلى ما وراءها وعندما ينعم النظر فى سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها فإنه لا يجد بداً من الارتماء فى أحضان العناية الإلهية والتسليم بوجود الله الذى بيده مقاليد كل شئ[11].

وهذا يوضح لنا أن « النظرة الروحية أو الدينية لا تولد فى النفس إلا حينما يتسع أفقها ، فتتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه ، فهى أوسع النظرات مجالًا وأبعدها مطلباً »[12].

وقد أكد أساطين العلماء فى عصرنا الحاضر من كافة التخصصات العلمية فى مجالات الطب والذرة والكيمياء وعلم الحياة وطبقات الأرض وعلوم البحار وغيرها من علوم ـ أكدوا جميعاً أن كل ما انتهى إليه بحثهم أدى بهم إلى الإهتداء إلى أن هذا الكون لا يتصور أن يكون قد نشأ عن طريق الصدفة العمياء[13] ، لأنه كون يشتمل على خطة محكمة ونظام متقن . وهذه الخطة المحكمة لابد أن يكون قد وضعها كائن مطلق قوى قادر عالم حكيم .

---

(١١) راجع كتابنا : دراسات فى الفلسفة الحديثة ص ٣٩ ـ دار الفكر العربى ١٩٩٣ .

(١٢) راجع : «الدين» للدكتور محمد عبدالله دراز ص ٨٦ ـ دار القلم بالكويت ١٩٨٠ .

(١٣) لقد عبر هؤلاء العلماء عن ذلك فى كتاب ترجم إلى العربية تحت عنوان « الله يتجلى فى عصر العلم » .

أليس هذا هو ما يقول به قانون السببية البسيط الذى يعد من البديهيات ؟ مَنْ غير الله يقدر على هذا الإبداع ؟

مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء بعد ظلام الليل ؟.

ومَنْ إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه بعد النهار ؟.

ومَنْ غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟

ومَنْ غير الله يدبر أمر السموات والأرض ؟

٢ ــ أصالة النزعة الدينية :

إن النزعة الدينية أصيلة فى نفس الإنسان ، والإيمان أمر فطرى لا يجحده إلا مكابر . وهذه الفطرة الربانية على الإيمان بالله عبرت عنها آية الميثاق فى القرآن الكريم حيث يقول الله ــتعالىــ:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ (١٤).

وقد سئل أعرابى بسيط كيف عرفت الله ؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، وأثر السير يدل على السير . وهذه سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، أفلا تدل على اللطيف الخبير ؟...

إن كل شىء فى الوجود يشير إلى خالق الوجود . وقد عبر عن ذلك الشاعر العربى القديم بقوله :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

---

(١٤) سورة الأعراف ١٧٢ .

والحقيقة التى أجمع عليها مؤرخو الأديان على اختلاف مشاربهم أنه ليست هناك جماعة إنسانية ولا أمة كبيرة ظهرت فى هذا الوجود وعاشت ثم مضت دون أن تفكر فى مبدأ الإنسان ومصيره فى تعليل ظواهر الكون وأحداثه .

« فالغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحيوانية .. وأن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية »(١٥).

وتاريخ البشرية حافل بالكثير من الآثار والنصوص التى تبين لنا أن الناس فى كل زمان ومكان قد شغلتهم المسائل المصيرية حول الحياة والموت وما بعد الموت ، وما شاكل ذلك من مسائل تعبر عن نزوع الإنسان وتطلعاته لحل ألغاز الوجود . وقد كانت الإجابات على تلك المسائل المصيرية تصدر عن الديانات التى اعتنقها الإنسان فى شتى العصور . ومن هنا كان قول برجسون :

« لقد وجدت، وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد أبداً جماعة بغير ديانة »(١٦).

وهكذا نرى أن حاجات الإنسان ومتطلباته تنحصر فى حاجات الحس وحاجات العقل وحاجات الروح ، أو كما عبر عن ذلك أحد

---

(١٥) الدين للدكتور دراز ص ٣٨ ، ٨٢ ، ٨٣ .
(١٦) المرجع السابق ص ٨٣ .

علمائنا الأجلاء[17] : « حاجة الحس ، فحاجة العقل القانع ، فحاجة العقل المتسامى » .

وكل ذلك يؤكد لنا أن النزعة الدينية أصيلة فى نفس الإنسان ، وليست شيئاً مفروضاً عليه من خارجه ، وأنها متوائمة تماماً مع الطبيعة الإنسانية ، وأن جحودها وإنكارها يعد شذوذاً فى الطبيعة الإنسانية وخروجاً عليها وقصوراً فى فهمها .

٣ ـ الإيمان ضرورة حياتية :

وإذا كان الإيمان يعد أمراً فطرياً ونزعة أصيلة فى نفس الإنسان فإنه من ناحية أخرى يعد ضرورة حياتية لا تستقيم حياة الإنسان بدونها . ومن هنا نرى فى عالمنا المعاصر مقدار ما يعانيه الإنسان فى العصر الحديث من تمزق نفسى بسبب الفراغ الروحى الذى يعانيه ، الأمر الذى يجعله كالمعلق بين السماء والأرض ، ليس لديه أساس راسخ يركن إليه ولا إيمان يملأ جوانب نفسه بالسكينة والطمأنينة .

وقد أفرزت موجات القلق الحادة فى الغرب اتجاهات فكرية منحرفة كالوجودية وغيرها من تيارات محاولة ملء الفراغ الروحى الذى يعانى منه الإنسان ، ولكن تبين أن كل هذه الاتجاهات الفكرية وما أحيط حولها من ضجيج إعلامى كبير وما نسج حولها من هالات لم تكن إلا « كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » ،

(١٧) هو المرحوم الدكتور محمد عبدالله دراز فى المرجع السابق ص ٨٧ .

لدرجة أنه يقال : إن زعيم الوجودية المعاصر «جان بول سارتر» عندما حضرته الوفاة طلب أن يؤتى له بقسيس كعادة المؤمنين بالمسيحية . فقد تأكد له بعد رحلة طويلة من المعاناة ورفض الإيمان وجحود الخالق أنه لابد للمرء من الإيمان ، فهو ضرورة حياتية يشيع الطمأنينة فى النفس ويمنحها الاستقرار وصلاح البال . ومن هنا أراد سارتر قبل أن يموت أن يحظى ـ على طريقة المسيحيين ـ بلحظة يشعر فيها بطمأنينة الإيمان . وفى ذلك دليل عملى على أن رحلة حياته كانت تسير فى طريق خاطىء .

ونظراً لأن الإنسان لا يستطيع أن يستغنى عن الإيمان ، فإننا نجد الملحدين الذين لا يؤمنون بالله يبحثون لأنفسهم عن شىء آخر يؤمنون به يكون بديلًا عن الإيمان بالله ، فيتحول الإيمان بالله لديهم إلى الإيمان بالعلم أو بالإنسان أو بالمادة.. إلخ . ولكنه فى هذه الحالة إيمان مقطوع الجذور ، لأنه إيمان بالفرع دون الأصل وبالعرض دون الجوهر . وبالتالى لا يمكن أن يشبع مطالب النفس الإنسانية المفطورة على الإيمان بالله وصدق الله العظيم القائل :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٨).

فالمؤمنون وحدهم هم الذين تمتلىء نفوسهم بالسكينة والطمأنينة ، وتحظى بالأمل والثقة .

---

(١٨) سورة الفتح ٤ .

٤ ـ الإيمان والأمل :

والإيمان يرتبط بالأمل ارتباطاً وثيقاً لا يمكن أن ينفصم . ومن هنا نجد أن المؤمن لا يمكن أن ييأس أو يتسرب القلق إلى نفسه . وصدق الله حيث يقول :

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ (١٩).

والأمل هو الذى يجعل الإنسان يحب الحياة ويعمل من أجل خيره وخير الناس؛ إيماناً منه بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا ، وثقة فى عدل الله ورحمته .

ويمتد هذا الأمل مع الإنسان المؤمن إلى ما شاء الله بلا حدود . ولذلك وجدنا النبى ﷺ يحث المؤمنين على أن يفعلوا الخير حتى ولو قامت الساعة مادام الإنسان فى وضع يستطيع فيه أن يقدم شيئاً . ويعبر عن ذلك حديث رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين يقول :

﴿ إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل ﴾ (٢٠).

والأمل ـ الذى هو نتيجة طبيعية للإيمان ـ يعد نعمة كبرى ورحمة

---

(١٩) سورة يوسف ٨٧ .

(٢٠) راجع مسند أحمد بن حنبل جـ ٣ ص ١٩١ (طبعة اسطنبول للكتب الستة مجلد ٢٢) .

من عند الله لعباده . و « لولا الأمل ما أرضعت أم ولداً ولا غرس غارس شجراً »[21].

٥ ـ مفهوم الدين :

وإذا كان الإيمان يعد فطرة أصيلة فى نفس الإنسان وضرورة حياتية يغذيها الأمل ، فإن معنى ذلك أن الإنسان متدين بطبعه . ومن هنا فإن من عرّف الإنسان بقوله : « الإنسان حيوان متدين » لم يكن مجانباً للصواب .

فالإنسان هو الكائن الوحيد الذى ينزع بطبعه إلى التدين عن وعى وإدراك ، والتدين مرتبط بدين ، والدين قد يكون حقاً وقد يكون باطلًا . ولهذا رأينا الحق تبارك وتعالى يقول فى القرآن الكريم على لسان سيدنا محمد ﷺ فى نقاشه مع المكيين الوثنيين : « **لكم دينكم ولى دين** »[22] ، فوصف معتقدهم الباطل بأن دين .

ولكن القرآن من ناحية أخرى عندما يطلق لفظ الدين معرَّفاً فإنه يقصد به الدين الحق . وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [23].

---

(٢١) من حديث للنبى ﷺ رواه الخطيب البغدادى فى التاريخ (راجع فيض القدير ٢/٥٥٩) .

(٢٢) سورة الكافرون ٦ .

(٢٣) سورة آل عمران ١٩ .

ويقول أيضاً :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (٢٤).

وهناك العديد من التعريفات لمفهوم الدين لن ندخل هنا فى تفاصيلها ولكننا نكتفى فقط بذكر واحد منها أشار إليه (التهانوى) فى كتابه كشاف اصطلاحات الفنون حيث يقول :

« الدين وضع إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم إلى الصلاح فى الدنيا والفرح فى الآخرة . ويطلق على ملة كل نبى ، وقد يختص بالإسلام . والدين يضاف إلى الله لصدوره عنه ، وإلى النبى لظهوره منه ، وإلى الأمة لتدينهم به وانقيادهم له »(٢٥).

٦ ـ وحدة الدين :

ومنذ أن خلق الله الإنسان وأهبطه إلى الأرض ، وأعانه على السير فى طريق الحياة ، وهداه إلى ما يحفظ حياته من مأكل ومشرب ومسكن وملبس الخ لم يتركه بعد ذلك دون رعاية روحية ، بل تعهده سبحانه وتعالى بإرسال الرسل فى فترات مختلفة على مدى التاريخ البشرى يبينون

---

(٢٤) سورة الشورى ١٣ .

(٢٥) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ـ للدكتور محمد يوسف موسى ص ١٥ مكتبة الفلاح بالكويت ١٩٨٠م .

للإنسان طريق الهدى والرشاد ، وظلت رسل الله تترى تذكر البشرية إذا نسيت ، وتحذرها إذا انحرفت ، وتوجهها إلى الخير إذا ضلت الطريق .

وقد انتهى المطاف بإرسال سيدنا محمد ﷺ ، فكانت رسالته خاتمة الرسالات ، ومكملة لدين الله الذى جاء به رسل الله من قبل . وقد جاءت هذه الرسالات جميعها تخاطب فى الإنسان تلك النزعة الدينية الأصيلة ، وتوقظ فى أعماقه هذا الشعور الدينى المتأصل فى النفوس .

ومن هنا فإن رسالة الأديان لم تكن تتجه إلى خلق الميول الدينية فى النفوس ، وإنما كانت توجه هذه الميول ــ التى هى موجودة أصلًا ــ الوجهة الصحيحة لتصل إلى الدين الصحيح . فالوحى الإلهى إذن جاء رحمة من عند الله يهدى النفوس الضالة ، ويساعد العقل الإنسانى على الوصول إلى الحق من أقرب الطرق وأيسرها(٢٦).

وإذا كانت رسالات الرسل قد تعددت فليس معنى ذلك أنها كانت مختلفة فى أصولها وأهدافها . فالدين الذى شرعه الله للبشرية دين واحد فى أصله ومضمونه . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى الآية التى سبق ذكرها فى قوله تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ (٢٧).

---

(٢٦) المرجع السابق ص ١٩ .

(٢٧) سورة الشورى ١٣ .

ومع التأكيد على وحدة الدين الإلهى فى أصله ومضمونه فإن هناك اختلافاً واضحاً بين الأديان السماوية فيما يتعلق بالشرائع ، نظراً لأن هذه الشرائع فى الأديان التى سبقت الإسلام كانت محدودة بحدود الزمان والمكان ومتغيرة بحسب الظروف والأحوال . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (٢٨).

وقد تدرجت الرسالات السابقة على الإسلام لتكون متمشية مع عقلية الشعوب أو الأمم التى وجهت إليها ، وظل الحال على ذلك دهوراً طويلة ، يجىء دين فى أثر دين ، ورسول يأتى فى أثر رسول ، وكل دين له زمان موقوت وقوم مخصوصون .

٧ ـ ضرورة الدين الإسلامى :

ولما وصلت البشرية إلى تمام نضجها كان الدين الخاتم وهو الإسلام الذى أكمل الله به الدين ، وكانت شريعته شريعة خالدة صالحة لكل زمان ومكان . وقد جاءت هذه الرسالة الخاتمة على فترة من الرسل ، وكانت البشرية فى أشد الحاجة إليها لإنقاذها من الأوضاع الفاسدة التى تردت فيها من جميع الجوانب .

وهكذا كانت هناك ضرورة ملحة لهذا الدين « بعد أن خفت صوت الرسل السابقين ، وضاعت معالم الرسالات الإلهية التى أرسلها

(٢٨) سورة المائدة ٤٨ .

الله لعباده ، لا فرق فى ذلك بين بلاد العرب حيث بيته المحرم ، وبلاد الروم المهد الثانى للمسيحية ، وفارس حيث كانت المانوية والزرادشتية والمزدكية ، وغير هذه البلاد من أقطار العالم المختلفة »[٢٩].

وإن إلقاء نظرة سريعة على أوضاع الأمم قبل الإسلام لترينا مدى الحاجة الماسة إلى هذا الدين الجديد . فقد كان العرب يعبدون أصناماً يتخذونها أرباباً من دون الله . وفى فارس كانت الديانات الثنوية تقول بإلهين : النور والظلمة ، أحدهما للخير والآخر للشر ، وكانت الديانة المزدكية تدعو إلى الإباحية المطلقة . ولم يقتصر الأمر على الضلال فى العقيدة ، بل كان الظلم الاجتماعى هو السمة السائدة فى المجتمع الفارسى .

أما المجتمعات التى كانت تسود فيها المسيحية فى بلاد الروم فقد تحولت فيها الديانة المسيحية السمحة إلى ديانة معقدة تؤله المسيح عليه السلام ، وانقسمت الطوائف المسيحية على نفسها انقساماً حاداً . وساد الظلم الاجتماعى وانتشر الانحلال الخلقى ، والفساد الإدارى .

ومن هنا وجدنا رعايا الإمبراطورية الرومانية فى كثير من المناطق يقبلون على الإسلام لتخليصهم مما كانوا يلاقونه من ظلم وعنت . وفى ذلك يقول توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » .

« كان أئمة اللاهوت فى إفريقية والشام[٣٠] قد استبدلوا بديانة

---

(٢٩) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص ٢٢ .
(٣٠) وهذا ينطبق أيضا على سائر البلاد المسيحية آنذاك .

المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة .. وكان الناس فى الواقع مشركين ، يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة ، كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد ، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب ، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضرهم ولا مستقبلهم . فأزال الإسلام ـ بعون من الله ـ هذه المجموعة من الفساد والخرافات . لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة ، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأى التقوى .. ونبذ الفضائل الكاذبة ، والدجل الدينى والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة ، وسفسطة المتنازعين فى الدين .. ووهب الناس إدراكاً للحقائق الأساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية »(٣١).

وهكذا كانت كل الظروف العالمية حينذاك تتطلب إنقاذاً سريعاً ومخرجاً يخرجها من الظلمات إلى النور ، فكان هذا الدين الخاتم ـ دين الإسلام ـ بما أتى به من تصحيح للعقائد وتنظيم للمجتمع وإقامة لموازين العدل بين الناس ، وتثبيت لدعائم القيم الأخلاقية ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ـ كان هو الدين الذى وضع البشرية على الطريق الصحيح ، وكان ولا يزال هو النور الذى فيه خلاص الإنسانية من كل ما تعانيه من أزمات فى جميع مناحى الحياة المادية والروحية على السواء .

---

(٣١) الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد ترجمة د. حسن ابراهيم وآخرين ص ٩٠ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧١م .

٨ ـ شمولية الإسلام ووسطيته :

لقد جاء الإسلام ديناً شاملًا ينتظم جميع مناحى الحياة ، وملبياً لحاجات الإنسان جميعها . فهو دين للإنسان ومن أجل الإنسان . ومن هنا جاءت تعاليمه ملائمة للطبيعة الإنسانية ، ومتفقة مع كل المتطلبات والاحتياجات المشروعة للإنسان فرداً كان أم فى جماعة .

وقد كان اهتمام الإسلام بالإنسان اهتماماً عظيماً . فقد جعل الله الإنسان خليفة فى الأرض ، وكرمه ، وفضله على سائر المخلوقات ، وميزه بالعقل والإدراك ، وحمله أمانة عمارة الأرض وصنع الحضارة فيها .

ومن دلائل اهتمام الإسلام بالإنسان ما يلاحظه المرء من أن القرآن الكريم كله إما حديث إلى الإنسان أو حديث عن الإنسان . وقد تكررت كلمة الإنسان فى القرآن ثلاثاً وستين مرة ، وجاء الحديث عن الإنسان بلفظ بنى آدم فى القرآن ست مرات وبلفظ الناس مائتين وأربعين مرة .

وإذا تدبرنا أول ما نزل من الوحى القرآني على رسول الله ﷺ فسيتضح لنا التركيز على العناية بشأن الإنسان بصفة خاصة . ويتجلى ذلك بوضوح من ذكر لفظ الإنسان مرتين فى الآيات الخمس الأولى من الوحى .

وقد تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة دستوراً ينظم للإنسان شئون حياته وأمور معاشه وعلاقاته بنفسه وبغيره من أناس

وحيوان ونبات وجماد . وفوق ذلك كله وقبله علاقته بخالق الوجود ومدبر الكون .

وقد امتازت تعاليم الإسلام بخصيصة عامة وسمة بارزة تشيع فى كل ناحية من نواحيه سواء فى مجال الاعتقاد أو التشريع أو الأخلاق . وهذه السمة البارزة هى الوسطية(٣٢).

والوسطية بصفة عامة تعنى التوازن والتوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين بحيث لا يستقل طرف منها بالتأثير ، أو يأخذ أكثر من حقه ويتجاوز حدوده ويطغى على الطرف المقابل . وحياتنا كلها مليئة بالأمثلة العديدة لهذه الأمور المتقابلة أو المتضادة . ومن ذلك على سبيل المثال : الروحية والمادية ، والواقعية والمثالية ، والفردية والجماعية ، والثبات ، والتغير ، وما شاكل ذلك من أطراف متقابلة .

وقد حاول الإنسان فى القديم والحديث بمناهجه الإنسانية إقامة نوع من التوازن بين هذه المتقابلات فلم يستطع . فكل المناهج الإنسانية قد فشلت فى إقامة التوازن العادل بين هذه الأطراف المتقابلة . وأقرب الأمثلة على ذلك ما نجده سائداً فى عالمنا المعاصر من مناهج مطبقة فى المعسكر الرأسمالى أو المعسكر الشيوعى . فكل المناهج الإنسانية ــ كما نستطيع أن نتبين ذلك من دراسة التاريخ ــ تشتمل على شىء من الإفراط

---

(٣٢) راجع الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوى ص ١١٩ ــ ١٤٨ مكتبة وهبة ــ القاهرة ١٩٧٧

أو التفريط ، والميل إلى هذا الجانب أو ذاك على حساب الجانب الآخر دون أن نستطيع أن نصل إلى الصراط المستقيم أو التوازن العادل .

ولا عجب فى ذلك فالإنسان مهما عظمت قدراته ومهما بلغ من العلم فإن ميوله وأهواءه تجذبه إلى هذا الجانب أو ذاك . والله وحده الذى خلق كل شيء فقدره تقديراً هو العليم الخبير بمن خلق وبما خلق ، فهو الذى أحصى كل شيء عدداً ، وهو الذى أحاط بكل شيء علماً ، وهو وحده القادر على هداية الإنسان إلى إقامة التوازن العادل فى الوجود المادى والمعنوى على السواء .

وكل إنسان يتأمل فى هذا الكون الكبير يستطيع أن يتبين بوضوح التوازن العادل فى كل ناحية من نواحيه ابتداء من الذرة إلى المجموعة الشمسية إلى ما شاء الله من عوالم .

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ (٣٣).

وهذا التوازن العادل قائم أيضاً فى خلق الإنسان الذى يمثل الكون الصغير . ولنتأمل فقط فى حركة التنفس لدى الإنسان : إنها حركة تمثل تعادلًا بين الشهيق والزفير ، فإذا اختل هذا التعادل بأن طال الشهيق أكثر مما ينبغى طاغياً على الزفير ، أو امتد الزفير أكثر مما ينبغى جائراً على الشهيق وقفت حياة الإنسان .

وما ينطبق على الجانب المادى فى الإنسان ينطبق على الجانب الروحى

---

(٣٣) سورة الملك آية ٣ .

أيضاً من حيث ضرورة التوازن بين عقله وقلبه ، وبين فكره وشعوره كشرط أساسى لاستقامة حياته . فإذا اختل هذا التوازن ارتبكت حياة الإنسان وانحرفت عن جادة الصواب .

وهكذا تكفل الله سبحانه بهداية الإنسان ، وأشار إلى ما يكفل له استقامة حياته ، فوضع للإنسان منهجاً لحياته كلها مادية وروحية وفردية وجماعية . وأعلن القرآن الكريم تميز الأمة الإسلامية بهذه الصفة العظيمة وهى التوازن أو الوسطية التى أشارت إليها الآية الكريمة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (٣٤).

وهذه الوسطية التى اختصت بها الأمة الإسلامية مستمدة من وسطية منهجها ونظامها هو : منهج الاعتدال والتوازن الذى سلم من الإفراط أو التفريط ومن الغلو أو التقصير .

وقد اختص الله الأمة الإسلامية بالوسطية لأنها الأمة التى اختصت بالرسالة الخالدة التى ختم الله بها كلّ رسالاته السابقة . فقد كانت الرسالات السابقة رسالات مرحلية محدودة بحدود الزمان والمكان ومرتبطة بالظروف المحيطة بها . فعندما تمادت اليهودية فى المادية وجدنا الديانة المسيحية تغلو فى الطرف المقابل أى فى النزعة الروحية . وهذا الغلو كان رداً على الغلو فى الطرف المقابل . ولكن الإسلام نظراً لأنه

(٣٤) سورة البقرة آية ١٤٣ .

هو الرسالة الأخيرة فى قصة اتصال السماء بالأرض عن طريق الأنبياء والرسل ؛ لم يكن له أن يقف عند حد الرد على نزعات غلت وتطرفت فى اتجاه ما ، وإنما جاء يمثل عودة إلى الحد الوسط العدل ، أى الصراط المستقيم .

والوسطية التى اختصت بها الأمة الإسلامية لها معان عديدة ، ومن هذه المعانى:العدل . ومن هنا كانت الأمة الإسلامية شاهدة على البشرية كلها بهذا المفهوم . فمن الضرورى لقبول الشهادة أن يكون الشاهد عدلًا .

وقد ورد تفسير الوسط فى الآية التى معنا بالعدل مروياً عن رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد فسر الوسط هنا بالعدل . والعدل والتوسط والتوازن عبارات متقاربة المعنى . قد ذكر المفسرون أيضاً فى قوله تعالى :
﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (٣٥) أى أعدلهم .

ومن معانى الوسطية أيضاً الاستقامة ؛ أى استقامة المنهج والبعد عن الميل والانحراف ، وهو الذى عبر عنه القرآن بأنه الصراط المستقيم . ومن هنا علّمنا القرآن أن نسأل الله فى حياتنا الهداية للصراط المستقيم .

﴿ اهدنا الصراط المستقيم•صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ .. والمقصود بالمغضوب عليهم اليهود وبالضالين النصارى ، فاليهود قتلوا الأنبياء والنصارى ألهوهم

---

(٣٥) سورة القلم اية ٢٨ .

واليهود أسرفوا فى التحريم والنصارى أسرفوا فى الإباحة ، واليهود غلوا فى الجانب المادى والنصارى قصروا فيه ، واليهود تطرفوا فى اعتبار الرسوم فى الشعائر والتعبدات ، والنصارى تطرفوا فى إلغائها .

كما تعنى الوسطية أيضاً الخيرية ، فخير الأمور الوسط ــ كما كانت العرب تقول فى حكمها . وكما يقال أيضاً : قريش أوسط العرب نسباً وداراً أى خيرها ، وقد كان النبى ﷺ وسطاً فى قومه أى أشرفهم نسباً .

وقد تمثلت هذه الوسطية الإسلامية فى أمور عديدة من بينها(٣٦):

(أ) **مجال الاعتقاد** : إذ معتقد المسلمين وسط بين معتقد الخرافيين الذين يؤمنون بالخرافات والأوهام ومعتقد الماديين الذين يؤلهون المادة ، ووسط بين الملاحدة والمعددين للآلهة ، ووسط بين الذين يؤلهون الإنسان وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية .

(ب) **مجال الشعائر والعبادات** : فقد جعل الإسلام المسلم موصولًا دائماً بربه عن طريق شعائر يومية كالصلاة ، وأسبوعية كالجمعة، وسنوية كالصوم ، أو مرة فى العمر كالحج ، ولكنه لم يطلب من المسلم أن يكون راهباً ينقطع للعبادة فى المساجد والخلوات . بل أمره أن يخرج بعد انقضاء الصلاة للسعى على رزقه : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ (٣٧).

(٣٦) راجع : الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوى ص ١٢٧ وما بعدها .

(٣٧) سورة الجمعة آية ١٠ .

وقد سمع النبى ﷺ ـ كما جاء فى صحيح البخارى ـ ثلاثة من أصحابه يتحدثون عن عبادتهم ولاحظ أنهم يبالغون فى العبادة إلى حد إهمال مطالب الجسد إهمالًا يخرج عن الحد المعقول ، الأمر الذى من شأنه أن يتلف الجسم . فقد قال أحدهم : إنه يقضى ليلة دائماً فى الصلاة ولا ينام ، وقال الآخر : إنه يواصل الصوم ولا يفطر ، وقال الثالث : إنه يعتزل النساء ولا يتزوج أبداً .

وكان هؤلاء الثلاثة قد سألوا قبل ذلك عن عبادة رسول الله ﷺ وكأنهم تقالوها أى وجدوها قليلة بالنسبة لما يفعلون . فلما خرج عليهم النبى ﷺ قال لهم ما معناه : أنتم الذين تقولون كذا وكذا ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أصلى وأرقد ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، وهذه سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى[٣٨].

(ج) **مجال الأخلاق** : فقد خلق الله الإنسان من عنصرى المادة والروح ، فالإنسان إذن ليس ملكاً ، ولكنه من ناحية أخرى ليس حيواناً ، إنه جسم وروح . والإسلام لا يريد أن يغلب أحدهما على الآخر بطريقة تخل بالتوازن بينهما ، وإنما يحرص على إقامة التوازن بين مطالب الجسم ومطالب الروح فى تناسق رائع . فالإنسان له أن يتمتع بكل الخيرات التى أحلها الله له فى هذه الحياة ، وفى الوقت نفسه

(٣٨) انظر نص الحديث فى صحيح البخارى مروياً عن أنس بن مالك (كتاب النكاح) .

لا ينبغي له أن يهمل مطالب روحه . يقول القرآن الكريم فى ذلك :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾(٣٩).

ومن هنا كان الإسلام وسطاً بين المادية والروحية . وقد اشتمل دعاء النبى ﷺ على هذين الجانبين حين قال :

« اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر »(٤٠).

(د) **مجال العقل والنقل** : فقد ميز الله الإنسان بالعقل . والعقل منحة من الله ليميز بها الإنسان بين الخير والشر والنافع والضار ، ويدرك بها حقائق الأشياء . والعقل هو الذى دلنا على وجود الله وقدرته وعظمته . ولكن العقل محدود لا يستطيع أن يعرف كل شيء ، ومن هنا جاء الوحى الإلهى مكملًا للعقل الإنسانى ، وآخذاً بيده إلى الصراط المستقيم . والإسلام لا يريد أن يلغى العقل لحساب الشرع ولا أن يلغى الشرع لحساب العقل . فهما ـ كما يقول حجة الإسلام الغزالى ـ متعاضدان ، بل متحدان . فالعقل شرع من داخل والشرع عقل من خارج .

---

(٣٩) سورة القصص آية ٧٧ .

(٤٠) رواه الإمام مسلم فى الدعوات عن أبى هريرة (راجع فيض القدير ج ٢ ص ١٣٧) .

ومن هنا يقول فى كتابه « معارج القدس » .

« أعلم أن العقل لن يهتدى إلا بالشرع ، والشرع لم يتبين إلا بالعقل ، فالعقل كالأساس والشرع كالبناء ، ولن يغنى أساس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس »[٤١].

وقد أعطى الإسلام للعقل حق الفهم والإدراك لما جاء به الوحى وفى ذلك دعم وتعضيد وتثبيت للإيمان . ولكن العقل فى الجانب الآخر ملتزم بكل ما جاء به الوحى على لسان النبى ﷺ من تعاليم ، فالأنبياء ـ كما يقوم الإمام الغزالى أيضاً ـ أطباء أمراض القلوب . ومن هنا فعلى العقل أن يلتزم بما يصفه له الطبيب المرسل من عند الله دون اعتراض مادام قد آمن قبل ذلك بالله وقدرته على إرسال الرسل وإنزال الوحى وإجراء المعجزات على أيديهم .

وفى هذا الصدد يقول الإمام الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) :

« وعلى الجملة : فالأنبياء أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز عن إدراك ما يدرك بعين النبوة ، ويأخذ بأيدينا ، ويسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين . وإلى هاهنا مجرى العقل ومخطاه ، وهو معزول عما بعد ذلك إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه »[٤٢].

---

(٤١) معارج القدس للغزالى : ص ٤٦ (المكتبة التجارية الكبرى) .

(٤٢) المنقذ من الضلال ص ٧٣ ـ تحقيق د. عبدالحليم محمود . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٤ .

وهذا يوضح لنا بجلاء علاقة العقل بالوحى . فالعقل هنا له وظيفتان هامتان :

أولًا : مهمة إرشادنا إلى الوحى والتصديق بالنبوة .

ثانياً : مهمة القيام بإدراك الموحى به وتفهمه(٤٣).

(هـ)**مجال التشريع** : فقد جاءت التشريعات الإسلامية فى حدود القدرة الإنسانية : ليس فيها إرهاق يثقل كاهل الناس ، كما أنه ليس فيها تهاون يؤدى إلى الفوضى والفساد . وهكذا جاءت وسطاً بين تحريم اليهود وتحليل النصارى . ووسطاً بين الفردية والجماعية . فالفرد له حقه فى صيانة «دمه وماله وعرضه ودينه وعقله» وجعلت الشريعة الإسلامية هذه الحقوق الخمسة أهم مقاصدها . وفى مقابل هذه الحقوق قرر الإسلام واجبات على الفرد إزاء المجتمع . فممارسة كل هذه الحقوق الفردية المشار إليها مشروطة بما لا يجلب على المجتمع أية أضرار أو يؤدى إلى إشاعة الفوضى والفساد .

---

(٤٣) انظر كتابنا : المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت ـ ص ١٦٩ مكتبة الأنجلو المصرية .

عقائد الإسلام الأساسية

بعد أن تحدثنا بصفة عامة عن بعض الملامح البارزة للإسلام نأتى الآن للحديث بشىء من التفصيل عن العقائد الأساسية التى جاء بها الإسلام . وهذه العقائد تتمثل فى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر .

والإيمان بهذه العقائد يتضمن الإيمان بكل ما أتى به الرسول ﷺ من عند ربه متمثلا فى الشعائر الدينية والتعاليم الأخلاقية والتشريعات المنظمة لحياة الإنسان الهادفة إلى صلاحه فى دنياه وسعادته فى الآخرة .
وفى الأمر بالأخذ عن الرسول ﷺ يقول القرآن الكريم :

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.[44]

١ ـ دين التوحيد الخالص :

لقد عرف الإسلام منذ اللحظة الأولى بأنه دين التوحيد الخالص الذى لا تشوبه شائبة . ومن هنا كان شعار المسلمين ولا يزال وسيظل إلى أن تقوم الساعة هو : « لا إله إلا الله ». ونحن عندما نقول : « لا إله إلا الله » فإننا بذلك ننفى الألوهية عن غير الله ، ونثبت الألوهية لله وحده .

(٤٤) سورة الحشر آية ٧ .

ولفظ الجلالة (الله) من الأسماء التى تدل على الذات الجامعة للصفات الإلهية كلها . ومن ناحية أخرى لا يطلق لفظ الله على أحد غير الله لا حقيقة ولا مجازاً . فهو إسم يختص به المعبود الحق وحده .

وتدل « لا إله إلا الله » على التوحيد الخالص الذى هو السمة البارزة للعقيدة الإسلامية . ودعوة التوحيد هى: دعوة إلى تحرير الإنسان من كل شكل من أشكال العبودية . فلا عبودية إلا لله وحده ، ولا تقديس إلا لله وحده ، ولا سجود إلا لله وحده . والبشر بعد ذلك كلهم متساوون لا فضل لأحد منهم على آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح . وبهذا سمت عقيدة التوحيد بنفوس المؤمنين ، وأصبحت مصدر عزتهم ويكفيهم شرفاً أن الله قد قرن عزة المؤمنين بعزته وعزة رسوله ﷺ فقال :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٥).

والوحدانية فى الألوهية أمر لا يحتاج إلى جهد عقلى ليصل الإنسان إلى إدراكه ، فهى من الأمور التى تعد من قبيل البديهيات . فلو كان هناك إلهان — أو أكثر — لاختلفا ، ولفسد الخلق . وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :
﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (٤٦). ويقول أيضاً :

---

(٤٥) سورة المنافقون ٨ .

(٤٦) سورة الأنبياء ٢٢ .

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٤٧).

وهكذا اتجهت دعوة الإسلام بالتوحيد إلى الناس كافة ، محذرة من الشرك به ــ سبحانه ــ أو اتخاذ الأرباب من دونه ، فذلك فوق أنه كفر بالله وبنعمته ؛ هو أيضاً نكسة فى الفطرة البشرية الصافية التى فطر الله الناس عليها .

وكما أن الألوهية تستلزم الوحدانية الخالصة فكذلك تستلزم الإيمان بأنه تعالى متصف بجميع الكمالات التى تليق بذاته تعالى . فهو سبحانه منزه عن أن يكون له شبيه من خلقه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (٤٨). ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (٤٩) عليم بكل شىء لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وهو وحده عالم الغيب لا يطلع عليه أحداً من خلقه إلا من اصطفاهم لرسالته إلى الخلق ، سبحانه قادر على كل شىء ، وعنايته تمتد إلى كل شىء ، ورحمته وسعت كل شىء ، وبيده ملكوت السموات والأرض ، ﴿ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ

(٤٧) سورة المؤمنون ٩١ .
(٤٨) سورة الشورى ١١ .
(٤٩) سورة الأنعام ١٠٣ .

ٱلْعَزِيزُ﴾ [٥٠]، يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء فهو أقرب إلينا من حبل الوريد ، وقد حثنا على أن نتوجه إليه وحده بالدعاء ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [٥١] سبحانه له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم ، وإليه المرجع والمصير ، يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير .

وعلينا أن نتخذ من الصفات الإلهية مثلنا الأعلى ونجعلها غايتنا . « فصفات الحب والرحمة التى هى : الرؤوف ، الودود ، التواب ، العفو ، الشكور ، السلام ، المؤمن ، البار ، رفيع الدرجات ، الرزاق، الوهاب، الواسع: كلها صفات يجب على الإنسان اتخاذها نبراساً للسير على هداها والتحلى بها ». فكمال العبد وسعادته فى التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلى بمعانى صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور فى حقه »[٥٢].

٢ ـ الإيمان بالرسل :

أن الإيمان بوجود الله ووحدانيته وصفاته المطلقة يتضمن قدرته سبحانه على إرسال الرسل وإنزال الوحى لهداية البشر . وقد اصطفى الله الرسل من بنى الإنسان ليكونوا مثلا عالياً على أرض الواقع ، ونماذج

---

(٥٠) سورة الشورى ١٩ .

(٥١) سورة غافر ٦٠ .

(٥٢) راجع العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص ٧٣ ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ وانظر : المقصد الأسنى : شرح أسماء الله الحسنى للإمام الغزالى ص ٢١ ـ مكتبة القاهرة .

حية تمشى بين الناس . ولم يختص الله بالهداية الربانية أمة دون أمة ، بل أرسل الرسل لجميع الأمم ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٥٣) ، فكانوا ــ عليهم السلام ــ مبشرين لمن أطاع واهتدى ، ومنذرين لمن انحرف وبغى ، حتى لا تكون للناس على الله حجة بعد إرسال الرسل . فالله سبحانه وتعالى عادل لا يعذب أحداً من خلقه إلا بعد أن يبلغه أوامره ونواهيه على لسان رسله . يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٥٤).

ولا يستقيم إسلام المسلم ، ولا يصح إيمانه بدون الإيمان برسل الله جميعاً . ونحن مكلفون بالإيمان بهم على سبيل الإجمال ، لأن الله سبحانه قد أرسل رسلاً كثيرين لا يعلم عددهم إلا هو سبحانه . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (٥٥). أما الأنبياء الذين ذكروا فى القرآن الكريم بأسمائهم فيجب علينا الإيمان بهم على التفصيل الوارد فى شأنهم ، وعددهم «خمس وعشرون» ذكر القرآن منهم «ثمانية عشر» فى سورة الأنعام (٨٣ وما بعدها) فى قوله تعالى :

---

(٥٣) سورة فاطر ٢٤ .

(٥٤) سورة الإسراء ١٥ .

(٥٥) سورة غافر ٧٨

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ
رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا
وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ
وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ
وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا
وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (٥٦).

أما الأنبياء السبعة الباقونُ فهم : إدريس وهود وشعيب وصالح وذو الكفل وآدم ومحمد خاتم الأنبياء المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ .

ورسل الله معصومون من التورط فى الإثم ، ومنزهون عن الوقوع فى المعاصى . فلا يتركون واجباً ، ولا يفعلون محرماً ، ولا يتصفون إلا بالأخلاق العظيمة التى تجعل منهم القدوة الحسنة ، والمثل الأعلى الذى يتجه إليه الناس وهم يحاولون الوصول إلى كمالهم المقدر لهم (٥٧)

والإيمان برسل الله جميعاً لا يتجزأ . فلا يجوز الإيمان ببعضهم ورفض الإعتراف بالبعض الآخر ، فذلك عين الكفر كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ (٥٨)

(٥٦) سورة الأنعام ٨٣ ـ ٨٦ .

(٥٧) العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص ١٨٢ .

(٥٨) سورة النساء ١٥٠ ـ ١٥١ .

ووجوب الإيمان بكل رسل الله أمر ينفرد الإسلام بجعله أساساً لا يصح الإيمان بدونه ، فكلهم جميعاً رسل الله جاءوا لهداية البشر بأمر الله . وإنه لمن مخالفة المنطق إذن أن يفرق المرء بينهم أو يؤمن ببعضهم ويكفر بالبعض الآخر ، فهذا شأنه شأن من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر بالبعض الآخر ، وشأن من يقرأ قوله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (٥٩). ويكتفى بهذا القدر متغاضياً عن بقية الآية .

وقد صور النبى ﷺ علاقته بالأنبياء من قبله تصويراً رائعاً حيث يقول :

﴿ إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية (من زواياه) ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين﴾ (٦٠).

ومن هذا يتضح لنا أن الرسالات السماوية سلسلة متصلة الحلقات تسلم كل حلقة منها إلى التى تليها ، وتكتمل فى النهاية بخاتمة هذه الحلقات برسالة سيدنا محمد ﷺ كما أراد الله رب العالمين .

٣ ـ الإيمان بالكتب السماوية :

والإيمان بالرسل يتضمن الإيمان بالوحى الذى أنزله الله عليهم لهداية البشر . يقول القرآن الكريم :

---

(٥٩) سورة النساء ٤٣ .

(٦٠) رواه البخارى فى صحيحه فى كتاب المناقب ١٨ .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٦١) ، ولكن القرآن أخبرنا أن أصحاب الديانات السابقة قد غيروا وبدلوا وحرفوا فى الوحى الذى جاءهم من عند الله .

ومن هنا كان القرآن الكريم متضمناً ومصدقاً لكل ما اشتملت عليه الكتب السماوية السابقة من حقائق ، وفى الوقت نفسه مهيمناً عليها وحاكماً على ما أصابها على يد أتباعها من تحريف . وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (٦٢).

ونظراً لأن القرآن الكريم هو كلمة الله الأخيرة للبشر فقد تكفل الله سبحانه بحفظه وصيانته من أن تمتد إليه يد التحريف أو التغيير أو التبديل . ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٦٣). وذلك حتى يبقى حجة خالدة باقية ما بقيت السموات والأرض ، ينشر نور الله وهدايته فى كل مكان بإذن الله .

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٦٤)

---

(٦١) سورة الحديد ٢٥ .
(٦٢) سورة المائدة ٤٨ .
(٦٣) سورة الحجر ٩ .
(٦٤) سورة المائدة ١٥/١٦ .

٤ ـ الإيمان بالملائكة :

ومثلما نحن مأمورون بالإيمان بالرسل والكتب السماوية فنحن مأمورون أيضاً بالإيمان بالملائكة بوصفهم من مخلوقات الله ـ وهو على كل شيء قدير ـ فلهم طبيعة تختلف عن طبيعة البشر ، وهم من عالم الملأ الأعلى الذى لا يدرك بالحواس ، وهم مطهرون من الشهوات والميــول والآثام : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٦٥). وقد خلقهم الله قبل خلق الإنسان . وهم يتصرفون فى شئون العالم بإرادة الله ومشيئته ، ولا يقدرون على شيء من تلقاء أنفسهم ، ويقومون بالمهام الموكولة إليهم كما أمروا دون زيادة أو نقصان وهم متفاوتون فى درجاتهم وفى أعمالهم . ومن هذه الأعمال التسبيح وحمل العرش والنزول بالوحى (وهذه هى مهمة جبريل عليه السلام) والدعاء للمؤمنين وتثبيتهم وكتابة أعمال الإنسان من حسنات وسيئات وغير ذلك من أعمال فى عالم الروح وفى عال المادة وفى عالم الإنسان .

والإيمان بوجود الملائكة مقرون بالإيمان بالله ورسله وكتبه فى آيات عديدة فى القرآن الكريم . ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (٦٦).

---

(٦٥) سورة التحريم ٦ .

(٦٦) سورة البقرة ٢٨٥ .

٥ ـ الإيمان باليوم الآخر :

لقد جاءت الديانات السماوية كلها تقول بحياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، وهناك شعور لدى الإنسان منذ القدم بأن هذه الحياة الدنيا ماهى إلا مرحلة عابرة تعود بعدها النفس بعد مفارقتها للبدن إلى حياة أخرى ـ وكان لهذه العقيدة لدى قدماء المصريين مثلا رسوخ كبير فى النفوس جعلهم يحنطون الموتى ، وذهب غيرهم إلى القول بتناسخ الأورواح أو القول بعودة الروح إلى التجرد التام عن المادة .

والعقل السليم لا يمكن أن يقبل مساواة الأخيار بالأشرار والصالحين بالفجار . فهذا ليس من العدل فى شيء ، ومن أجل ذلك لابد أن تكون هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة يلقى فيها كل إنساء جزاء ما قدم ، إن خيراً فجزاؤه خير وإن شراً فجزاؤه شر . فالحياة الدنيا إذن ليست نهاية المطاف وإنما نهايتها بداية لحياة أخرى .

والإيمان بالدار الآخرة شرط أساسى من شروط الإيمان فهى الدار التى يفصل الله فيها بين الناس أجمعين ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٦٧). وفى هذا المعنى يقول الله تعالى أيضا :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٦٨).

(٦٧) سورة الدخان ٤٠ .

(٦٨) سورة الجاثية ٢١ ـ ٢٢ .

وقد أنكر الماديون الذين لا يؤمنون إلا بالمادة وحدها ـ أنكروا أن تكون هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة ، يقول القرآن الكريم على لسانهم : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (٦٩)

وسخر المشركون من البعث بعد الموت ، واعتبروه أمراً مستحيلًا ، وقد ذهب أحدهم وهو «أبى بن خلف» إلى النبى ﷺ وأخذ معه عظماً بالياً ظل يفتته أمام الرسول ويقول : يا محمد أترى أن الله يحيى هذا بعد ما قد رم وبلى ؟ فقال له النبى ﷺ نعم ، ويبعثك ويدخلك جهنم ، وقد رد عليهم القرآن فى قول الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٧٠).

---

(٦٩) سورة الجاثية ٢٤ .

(٧٠) سورة يس ٧٧/٨٢ .

فالبعث ليس بالأمر العسير . والله الذى خلق هذا الوجود من العدم ، ولم يمسه تعب ولا نصب لقادر على أن يعيد خلق الناس ويبعثهم جميعاً ، وهذا البعث أسهل عليه من الخلق الأول كما يقول القرآن أيضاً ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (٧١).

ولاشك أن الإيمان بالدار الاخرة يتضمن الإيمان بالقيم الخلقية والمثل العليا ، لأنه إذا لم تكن هناك دار أخرى بعد هذه الحياة الدنيا فليس هناك إذن أى معنى للإلتزام بالقيم الخلقية أو المثل العليا . وهكذا نجد أن عقيدة الإيمان بالدار الآخرة لها دور كبير فى صلاح المجتمع والتزامه بالقيم وتمسكه بمبادىء الأخلاق القويمة ، كما أنها من ناحية أخرى تبعث فى النفوس الأمل ، وتملأ قلوب المظلومين بالثقة فى عدل الله الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . يقول الله تعالى فى ذلك :

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (٧٢). وعندئذ يفصل الله بين الناس ويلقى كل إنسان جزاء ما قدم ، ويسعد المتقون ويساقون إلى الجنة ، ويشقى الكافرون ويساقون إلى النار :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (٧٣).

---

(٧١) سورة الروم ٢٧ .

(٧٢) سورة الأنبياء ٤٧ .

(٧٣) سورة فصلت ٤٦ .

٦ ـ الإيمان بالقضاء والقدر :

ينبنى الإيمان بالقضاء والقدر على الإيمان بالله ـ عز وجل ـ وبأسمائه الحسنى ، وصفاته الكاملة التى من بينها علمه الواسع المحيط بكل شيء ، وإرادته الشاملة ، وقدرته الكاملة . فهو ـ سبحانه ـ فعال لما يريد ، قدَّر الأشياء فى الأزل وعلم أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده ، وعلى صفات مخصوصة ، فهى تقع حسب ما قدرها سبحانه .

ويمكن تعريف القدر بأنه « النظام المحكم الذى وضعه الله لهذا الوجود ، والقوانين العامة ، والسنن التى ربط الله بها الأسباب بمسبباتها »(٧٤).

ولا يجوز لعاقل أن يركن إلى التواكل اعتماداً على عقيدة القضاء والقدر فلا يسعى فى رزقه ولا يعمل لغده مادام كل شيء قد قدره الله فى الأزل . فالقدر أمر محجوب عنا لا نعرفه فهو غيب ، وعلم الغيب لا يعلمه إلا الله : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (٧٥) .

---

(٧٤) العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص ٩٥ ، انظر أيضاً عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ١١٥ وما بعدها ـ الدوحة ١٩٨٣ .

(٧٥) سورة الجن ٢٦ .

فالإيمان بالقضاء والقدر إذن ليس قيداً على حركة المؤمن . صحيح أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ علم فى الأزل ما الذى سيختاره كل فرد من أفراد البشر بمحض إرادتهم ــ فليس هناك إكراه ، ولهذا كان أمراً طبيعياً وعدلا أن يجازى كل امرىء على ما عمل : ﴿ مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (٧٦) ــ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (٧٧). فلو كان هناك إجبار محض لما كان هناك مكان للمسئولية ، ولكن لما كان هناك ثواب وعقاب؛ كان ذلك نتيجة للمسئولية : مسئولية التكليف التى حملها الإنسان .

ومن أجل ذلك لا يجوز بحال من الأحوال أن يقترف الإنسان السيئات ويفعل المعاصى ، ثم يقول هذا قضاء الله ، وهذا أمر قدره الله علىّ فلا حيلة لى فى ذلك ، ومن الأمثلة التى تروى فى هذا الصدد ما ورد أن عمر بن الخطاب أُتِىَ له بسارق فقال له عمر : لم سرقت ؟ فقال الرجل : قضاء قضاه الله علىّ ، فأمر عمر بقطع يده وجلده . فروجع عمر فى ذلك إذ عاقب الرجل بأكثر مما يستحق ، فحد السرقة هو القطع فقط أما الجلد فأمر زائد لا مبرر له ، فقال عمر : القطع للسرقة والجلد للكذب على الله ، إذ من أين للسارق أن يعلم أن الله قد كتب عليه ذلك .

---

(٧٦) سورة البقرة ٢٨٦ .

(٧٧) سورة المدثر ٣٨ .

وقد ورد فى الأثر : (مثل علم الله فيكم كمثل السماء التى أظللتكم والأرض التى أقلتكم ، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض ، كذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله ، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب كذلك لا يحملكم علم الله) .

فالإيمان بالقضاء والقدر فى الإسلام لا يدفع إلى السلبية ، ولا يمنع المسلمين من الأخذ بالأسباب ، ولا يحملهم على التحلل من مسئولية التكليف ، ولا يحملهم على عيشة التواكل والتمنى الفارغ ، ولا تشكل هذه العقيدة عقبة فى طريق تقدمهم وازدهارهم كما يزعم خصوم الإسلام .

ولنا أسوة حسنة فيما كان يفعله الرسول ﷺ وصحابته والتابعون . لقد فهموا الحياة وعاشوها سعياً وكفاحاً وجهاداً متواصلاً فلم يتواكلوا أو يكسلوا .

يروى أن عمر بن الخطاب رأى قوماً قابعين فى المسجد بعد الصلاة بدعوى التوكل على الله ، فقال لهم قولته المشهورة (لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . وإن الله تعالى يقول : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ (٧٨).

---

(٧٨) سورة الجمعة ١٠ .

فالقضاء والقدر ـ كما يقول المرحوم الشيخ شلتوت ـ ليسا سوى « النظام العام الذى خلق الله عليه الكون ، وربط فيه بين الأسباب والمسببات ، والنتائج والمقدمات ، سنة كونية دائمة لا تتخلف ، وكان من بين تلك السنة أن خلق الله الإنسان حراً فى فعله مختاراً غير مقهور ولا مجبور »[٧٩].

فلا يجوز لأحد أن يعتذر عن التقصير فى واجب بالقضاء والقدر ، إذ لو صح هذا لبطلت التكاليف ، وكان بعث الرسل وإنزال الكتب والوعد بالثواب والعقاب عبثاً وباطلًا ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

---

(٧٩) الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص ٥٠ دار الشروق ١٩٨٣ .

الفهـــرس

الموضوع الصفحة